صحيفة "ورقة خبور الجزائر"
مصدر نادر في سياسة فرنسا الإعلام

أ.د عميراوي احميده

جامعة الأمير عبد القادر

يجب أن نخذف نحن الجزائريين من أذهاننا فكرة أن الساسة الفرنسيين استخدموا السلاح العسكري فقط في احتلالهم للجزائر، لأن الوثائق التاريخية تبين أنهم استخدموا وسائل أخرى متعددة وفي مقدمتها وسائل الإعلام. والسؤال المطروح هو كيف تمّ ذلك؟

سبق وأن نشرنا موضوعا بعنوان الدعاية الفرنسية[1]. حيث بينا فيه كيف وظف رجال الاحتلال المادة الخبرية التي تركها الرحالة الأوربيون عن الجزائر حين درسوا جوانب حياتها. وبينا كذلك دور المستشرقين في عملية الاحتلال بما أنجزوه من أعمال تعلقت بالتعليم وبالطباعة والترجمة والتأليف بالجرائد والكتب، وكان في مقدمة أولئك المستشرقيون المشارقة الذين كانوا من مصر والشام خصوصا، إذ سبق للموارنة أن قاموا بدور الطباعة باللغة العربية في أوروبا عامة. حيث طبعوا أول كتاب بالعربية هو "صلاة السواعي" عام 1514. وكذلك سفر الزبور عام 1516. ثم تأسست مطبعات في الشام بطرابلس عام 1610 وبحلب أوائل القرن 18 ومطبعة بمدينة الشوير في لبنان عام 1733. ولم يكن مثل هذه المطابع موجودا في الجزائر. لكنه بمجيء الحملة الفرنسية إليها دخلت الطباعة بشكل قوي نسبي، إذ كانت خبرة أولئك المشارقة والمستشرقين المهتمين بالطباعة في يد رجال الاحتلال الفرنسيين[2]. إذ كان أول عمل مطبعي كان بوسائل إعلامية.

1- ينظر كتابنا: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة 2002

2-سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء 4، دار الغرب الإسلامي، ط. 4، بيروت 1996، ص- ص. 23-46.

ويمكن تسجيل أول دور لهذه الوسائل الإعلامية الفرنسية وجه للرأي العام الجزائري هو المنشور الذي وزع من تونس على الجزائريين دعتهم فيه حكومة باريس للوقوف مع الحملة الفرنسية القادمة لتخليصهم من ظلم الأتراك العثمانيين[3].

وكان من نشاط هؤلاء المستشرقين إعداد برنامج دعائي اعتمادا وانطلاقا من الصحافة، ولهذا لا نستغرب وجود مطبعة بجانب المدفع على متن السفن التي نزلت في سيدي فرج. إذ تمكنت هذه المطبعة من طبع أول عمل إعلامي تمثل في صحيفة هي "بريد الجزائر" (Estafette d'Alger). وكان الهدف من طبع هذه المجلة مخاطبة الرأي العام الفرنسي والتعريف بهدف الحملة وفوائدها، والدفاع عن موقف الحكومة أمام المعارضة التي نددت بالحملة[4]. وحُدد لها مكان مفترض يكون إما على ضفاف نهر الحراش أو في قصر الداي أو على أحد الشواطئ. وعين رئيس تحريرها السيد ميرل. وتمّ ذلك وفق تصور قائد الحملة دي بورمون.

3- أرسلت حكومة باريس في أفريل عام 1830 وفدا ضم كلا من رامبار (Raimbert) وجيراردا (Girardin) برئاسة دوبينوسك (D'Aubignosc) و تمكّن هذا الوفد من تحقيق أهداف كثيرة. توجد مجموعة من الوثائق محفوظة في: A. M. G. H2 بها معلومات هامة عن مهمة هذا الوفد إلى تونس. للمزيد ينظر كذلك ما كتبناه في: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840)، البعث، قسنطينة-الجزائر 1987. ص. 100 وما بعدها

4- واجهت الحملة الفرنسية معارضة كبيرة من الفرنسيين السياسيين والكتاب والعامة. لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية، المرجع السابق، ص-ص. 39-55.

وقد تضمن العدد الأول عبارات حماسية خدمة لأهداف الأمة الفرنسية. ومن هذه العبارات نقرأ بما أمكن ترجمته: "**لن تبقى إلاّ بضعة أيام... وتطمئن المسيحية، ويؤخذ الثأر للعلم الفرنسي**"[5].

ولكن أهم وسيلة دعائية كانت بداية الاحتلال هي صحيفة "ورقة خبور الجزائر" الصادرة يوم 27 جانفي 1832 والمشهورة بعنوان (Moniteur algérien) التي حملت في عددها التاسع عشر اسم "**ورقة خبور الجزائر**" بجانب عنوانها الأصلي.

ونحاول عرض جانب من هذه الصحيفة خلال فترة محددة، وأعني بها فترة القائد العام، أي من عام 1830 إلى عام 1834

وصدر العدد الأول والثاني والثالث معا في 6 صفحات من الحجم الكبير. وهي متخصصة بحسب عنوانها الفرعي في أنها صحيفة رسمية استيطانية، مهمتها نشر الإعلانات القضائية والإدارية والتجارية والبحرية[6].

وتعد هذه الصحيفة مصدرا هاما في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، إذ أنه بحسب تقديرنا لا يمكن لأي باحث أن يستغني عنها في أبحاثه خلال هذه الفترة.

وبظهور هذه الصحيفة تكون الجزائر قد عرفت الطباعة أسوة بالبلدان الأخرى إذ سبقتها في مصر عام 1828 حين صدرت صحيفة **الوقائع المصرية**. وفي تركيا كانت **المرشد العثماني** عام 1831. ثم صحيفة **مرآة الأحوال** عام

5- يراجع: سيف الإسلام، المرجع نفسه. ص. 18.

6- حدد مبلغ بيعها ب 7 فرنكات وباشتراك سداسي بقيمة 25 فرنكا. واتخذت من شارع الجنينة رقم 29 في الجزائر العاصمة مقرا لها

1855. وفي بيروت كانت **حديقة الأخبار** التي أسسها خليل الخوري عام 1858. وفي تونس كانت **الرائد التونسي** عام 1860 برئاسة المستشرق كرتلي أو رُشَيِد الدحداح.

افتتحت الصحيفة في عددها الأول بمرسوم ملكي وقعه لويس فيليب صادر يوم 1831/12/1 الذي أحدث بمقتضاه منصب المقتصد المدني وأسنده إلى السيد بارون الذي منحت له صلاحيات كثيرة.

ويتبين من هذا المرسوم أو من القرارات التي اتخذها هذا المقتصد أن تحولا كبيرا حدث في الإدارة الفرنسية بالجزائر، إذ صارت السلطة المدنية المشخصة في هذا المقتصد تتقاسم السلطة مع القائد العام العسكري.

مثلما تتبين قرارات هامة من بينها قرار القائد العام دو روفيكو المؤرخ في 7 جانفي 1832 حين صادر واشترى مقدار 4500 قنطار من الصوف وكون منها أفرشة (مطرح) بقيمة 10 كلغ لكل عسكري. واشترى من المغرب كميات كبيرة من الصوف بقيمة 16 فرنك و50 سنتيم للقنطار الواحد.

مثلما يتبين تعيين أول رجل قانون في المحكمة بالجزائر العاصمة يوم 3 فيفري 1832. وكذلك المحضر القضائي. وتعين يوم 17 مارس 1832 موثقا. وبهذا يكون جهاز "العدالة" الفرنسية قد تواجد في الجزائر بمؤسسات متعددة.

ومن جهته عمل المقتصد المدني على اعتماد هذه الصحيفة بصفة رسمية على أن تعمل بقوانين فرنسا والقوانين المحلية، وحدد تاريخ أول مارس 2003 لاحتكار هذه الصحيفة لكل المنشورات للإعلانات وكل الأمور الدعائية.

يتبين في الأعداد الأخرى من هذه المجلة الإعلانات ونشاط الحركة التجارية البحرية بعدد السفن التي دخلت ميناء الجزائر. وبتنوع المواد المستوردة والمصدرة.

ويتبين من محتوى هذه الصحيفة أنها خصصت أخبارا محلية جزائرية وأخرى محلية فرنسية، ومغربية وإفريقية ودولية. وبهذا تكون هذه الصحيفة وسيلة دعائية وظفتها فرنسا لصالح الاحتلال والاستيطان.

وكانت صحيفة خبور الجزائر تصدر باللغة الفرنسية. إلى غاية العدد رقم 26 حيث خاطبت السلطة الفرنسية الجزائريين بالعربية الدارجة وعرفتهم بمزايا القانون الفرنسي وبالمدنية الأوروبية. وبهدفها من تعليم اللغة العربية، وحثت الجزائريين على إرسال أبنائهم للمدارس. وطلبت من الجزائريين مساعدة رجال الاحتلال وعدم التعرض للقضاة والحكام حين يدخلون بيوتهم للقيام بمهام إدارية واجتماعية. إذ جاء في هذا العدد "**من أجل أن الجزائر هم تحت حكومتنا فظهر لنا أن نعلمهم أشراعنا ليعرفوا كيف يحكمون في بلدنا فرانسة. السلطان يحكم في فرانسة برضاء ناس البلد...عند ثمانية وزراء..**"

و لم تحظ اللغة العربية بمكانة في دور الطباعة من طرف قادة الاحتلال إلاّ في نطاق محدود. وما حظيت به كان خدمة للتوسع الفرنسي وأملا في كسب الجزائريين إلى صفهم. ومن غير المستبعد أن يكون هذا سببا في التعامل باللغة العربية بالشكل المحدود إلى يوم أن أصدر الوكيل المدني بيشون (Pichon) قرارا بإصدار الصحيفة الرسمية (Moniteur algérien) باللغتين الفرنسية والعربية. وقد تولى إدارة التحرير بها رولاند دي بوسي ثم خلفه (Adrien Berbrugger) يوم 31 أوت 1835.

وكانت صحيفة خبور أو أخبار الجزائر امتدادا لما كان يصدر من صحف في فرنسا الذي كان بعدد 750 عنوانا منها 250 عنوانا في باريس فقط. وهـــذه دلالة على أهمية هذه الوسيلة الدعائية الإعلامية وهو ما يفسر اتساع الصـــحف الإعلامية في الجزائر خلال الوجود الاستعماري[7]

والدارس لمحتوى هذه الصحيفة تتبين له إحصاءات كثيرة ومعلومات تكاد تكون أول بأول عن الاحتلال الفرنسي في الجزائر. ففي العـــدد 27 جـــاءت معلومات تبين مدى النشاط الاستيطاني في الجزائر، ونقتبس من هذا النشاط ما يلي:

ففي مدينة الجزائر وحدها صارت 7 أسواق كـــان أهمهـــا للحبـــوب، والخضر، والحيوانات. وكذلك مذبح مقسم إلى ثلاثة؛ قسم خاص بالمســـلمين وقسم خاص بالمسيحيين والثالث خاص باليهود. بجانب مطبعة فرنسية عربيـــة. ومؤسسات أخري منها محفلان ماسونيان[8]. ومستشفى مـــدني. ومؤسســـتان

7- إذ صدرت في الجزائر جرائد كثيرة مثل "**النشرة الرسمية لعقود الحكومـــة**" (Bulletin officiel des actes du gouvernement) عام 1834 اختصت بنشر كل ما يتعلق بالقرارات الحكوميـــة. ثم تأسست صحيفة **الأخبار** (Akhbar) التي كانت تصدر بحروف لاتينيـــة عـــام 1839. ثم صـــدرت صحيفة السيبوس (La Sybousse) عام 1843. وجريـــدة (Courrier de Bône) عـــام 1849. وجريدة "**الجزائري**" (L'Algérien) عام 1852. ثمّ تأسست صحيفة طبية عام 1856 باســـم (La Gazette médicale) .

ومن أهم الصحف صحيفة **المبشر الصادرة عام** 1847. وهي صحيفة رسمية موجهة للجزائريين وتصدر باللغتين.

8- لعبت الماسونية دورا كبيرا في عملية الاحتلال في الجزائر لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا من تاريخ الجزائر الحديث، الطبعة الثانية، دار الهدى، 2004

داخليتان للذكور واثنتان للبنات. و50 تاجرا أوروبيا. و9 حرفيون متخصصون في مواد صناعية. و28 مخبزة فرنسية. و9 مقاهي. و4 نوازل إقامة بمطاعم و4 مطاعم. و100 بائع خمر. و3 أطباء و 5 صيادلة. وقابلاتان. وموثقان، و4 محضري قضاة. و6 رجال قانون.و 3 مهندسين معماريين. و40 بناء. و25 نحارا. وبائع السلاح. و20 إسكافيا. و3 محلات حلاقة. و6 محلات سعالجية. ومحل بيع الذهب. وسيرك. تتبين بوضوح وضعية مدينة الجزائر خلال بداية الاحتلال.

ولفرض ضرائب على الجزائريين كان الإعلان باللغة العربية في العدد 29 المؤرخ في 18 أوت 1832 وهذا نصه:"**غرامة على دخول غلة البلاد.. في الجزائر...كل حمل متاع الغلة يكون اومثل خدرة اومثل قمح الذي يدخل في البلاد للبيع او للماكلة ملزم أن يخلص غرامة في بيبان المدينة الذيك يكون من جيهت البر كيف باب عزون باب الواد باب الجديدوهذه الغرامة هي كل كريطة مولة اثنين أو اربع روطة وتكون معمرة تخلص على كل عود ستة موزونة كل حمل محمل ستة موزونة كل عود أو بعل محمل اربع موزونة كل حمر محمل موزوتة وعشر دراهم كل رجل محمل عشرين درهم. حمال الحطب للتشعل لم يخلص إلا نص غرامة المذكورة ولكن يخلص الغرامة كلها إذا يخود حاجة بالزايد الحطب**".

توقيع جانتي دي بيسي

تتبين من هذا القرار إجحاف السياسة الاستعمارية في حق الجزائريين كلهم. بفرضها لضرائب متنوعة. بل ذهب بها الأمر إلى جمع الزكاة من عند السكان في جهات أخرى.

ويتبين من أعمال الموثقين المذكورة في هذه الصحيفة أن مصادرات كثيرة لأملاك الجزائريين، منها مصادرة بعض أملاك أعيان المدينة أمثال حمدان خوجة. وكذلك كانت دعوة رجال الاحتلال إلى الجزائريين كي يقبلوا على الدراسة وباللغة العربية.

ونشرت الصحيفة أشياء كثيرة تمجد الجزائريين عبر التاريخ قصد كسب ثقتهم مثلما حدث في العدد 44 بتاريخ 24 نوفمبر 1832 حيث جاء بالخرف إن "العرب الذين في أقاليم المغرب هم في قديم الزمان عظماء وباهية وجذعان فصاروا عمايلهم للشعرا وللمورخين أفضل الأوان غبلا شك قلبهم ينتفخ ويخفق كمان حين يستعملوا السيف أو اليتعان ولما يسمغوا آلات الألحان أو يحمحم تحتهم الحصان لكن انقمعوا حركات شرقات لبعضهم بظلم الأتراك...يا أصحابنا وأخواننا العرب اعلموا أنكم تحفظوا دين آباءكم معما تشركوا بجلالنا وعزنا وتتاحدوا بنا". ومن غير المستبعد أن يكون لهذا الكلام فعله في نفوس الجزائريين؛ وقد يكون هذا الكلام انطلى على بعضهم ووثقوا بفرنسا.

وحين قررت السلطة الفرنسية تحويل مسجد كتشاوة في الجزائر العاصمة إلى كنيسة نشرت صحيفة أخبار الجزائر مقالا مطولا حاول إقناع العامة بشرعية ذلك، وجاء فيه: "... **ولا بد نكتب هنا الجواب الذي أرسله المفتي والعلماء للجينيرال حين شاورهم** (الذين قالوا له) **لأن هذا البرءة عرفنا منها الاحتمال فيهم كما هو فينا وهذه هي مضمنتها الجامع امتعنا انه يتبدل دينه ولكن مولاه فلم يتبدل لأن الرب النصاريين هو ربنا ولا فرق بيننا إلا الطبع الذي نعبده وأننا كنا بين يديكم وقدرتكم تأخذون هذا الجامع ولا اخذتموه ولكن طلبتموه منا وهذا الخير الذي عملتمو علينا فلم ننساه ولم ننسى أيضا**

أنكمشاورتمونا قبل أن قدستموه للعبادة دينكم". ومن بعد هـذه الكـلام الصلح من الناس الأكابر في البلاد أي شيء يبقى إلا الصحبة والمحبـة بـين الجنوس هو ذا الدين: القران الغاير والصعيب في الزمن هو موجود بالصلح في قرب دين آخر أحلا منه ومن أجل هذا الخير نشـكر في الفرانصـاويين والمسلمين سواء سواء هذه الكنيسة هي الأولى منذ مدة أربع عشرة ماية سنة ولا كنيسة غيرها مستقامة في مصر أو في بربريه... ونطلب من ربنا أن تصير كنائس أخرى[9].

فمن غير المستبعد أن تكون السلطة الفرنسية قربت إليها أنصاف العلماء وكسبت رأيهم ووظفته دعاية لعدم إثارة حفيظة المسلمين باستلامها أو هدمها لمؤسسات دينية. و لم تكتف بهذا بل عملت على تهدئة النفوس الثائرة ضـدها بنشرها مثل هذا الخبر.

ونذكر ما جاء في قرار المقتصد المدني في صحيفة رقم 58 في 2 مـارس 1833 **المادة الثانية "إن ليسوا يقدموا عقودهم في مدة ثلاثة أيـام المـذكورة فالبايلك يأخذ أملاكهم كما هو مكتوب في الشرط الثالث عشر وسـبعماية من كتاب الشريع"**

وقد تولت السلطة الفرنسية حصر أملاك الناس ومصادرة الأملاك التي لا يملك أصحابها عقدا، إذ جاء في العدد 67 في 3 ماي 1833 أن **"وكيل الحبوس يدعى جميع أصحاب الأملاك الذين معينين لخدمة البيليك أن يسلموا بالعجل عقودهم في دار الدومينو حتى الناس الكومسيون يطلبوا فـيهم ويتأكـدوا**

9 - Moniteur algérien, no 52, du 19 janvier 1833.

بصحة مطالبهم ويثبتوا حقوقهم بل تصرف الأملاك في تاريخ 26 من شـــهر أبريل 1833" وكيل الحبوس برناد

وتتالت الإعلانات باللغة العربية إلى الجزائريين حول أملاكهم، بمثل مـــا جاء في العدد 72 في تاريخ 6 جوان 1833 **"من عنده جنان أو ملك في حومة الحمة يتوجه يوم الأربع على الساعة التسع امتاع الصبح إلى قهوة الحمة التي على هي طارق القبة ليحقق حد ملكه من حد أملاك الدومينو"**

وقد نشرت الأملاك المصادرة في منطقة الحامة في ملحق صحيفة رقم 93 بتاريخ أول نوفمبر 1833 والتي قدرت ب 26 قطعة ذات مساحة 31 هكتـــار و36 آر 4 سنتآر وهي لكل من الدومين وبيت المال وللجامع الكـــبير ولبنـــت حسن باشا ولبنت بيبي وللسادة قدور هادي عمار ولحسن ولد زروق أنصـــيل ولأحمد الأمين وللسيد مرسي وللسيد جولي وللسيد قارة محمد بن ولابيد

ونفس الإعلان نشر في العدد 73 بتاريخ 13 جوان 1833 وجه لســـكان باب الواد وجاء فيه **"من عنده جنان أو ملك في باب الواد يتوجه يوم الثلاثه على الساعة ثمانية امتاع الصبح إلى البلاسة امتاع باب الواد ليحقـــق حـــد ملكه من أملاك الدومينو"**

تكرر الإعلان عن تحديد قيمة العملة المسكوكة في العدد 103 بتاريخ 10 جانفي 1834. وجاء في العدد 115 بتاريخ 7 لأبريل 1834 إعلام للجزائـــريين تحديد مدة الحجر الصحي في إسبانيا بثمانية أيام "...**يعلم أهل الجزائـــر...أن المراكب التي تأتي من جميع مراسى الجزائر لا يعملوا كرنطين في بلادها سوى ثمانية أيام"**

وجاء من الجنرال فوارول الحاكم العام في عدد رقم 116 في 14 أفريل 1834 خبر عقد صلح بين الفرنسيين والأمير عبد القادر بما يفهم من معناه "**أن الصلح لله الحمد قد وقع بالحلف وباليمين بين عساكر الفرنصيص وبين أعراش العرب والقبايل عمالة وهران بواسطة السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين وهو أرسل إلينا ثمانية رجال...بمكاتيب من عنده ومن عند الجنرال الذي يحكم في مدينة وهران... والآن العرب والفرنصيص يتعارفون بعضهم بعضا...ونطلب من الله أن جماعات المسلمين من العرب وغيرهم والفرنصيص يكونون على قوم واحد**".

وصفوة القول إن السلطة الفرنسية استخدمت وسائل متعددة في احتلالها للجزائر. ومن أخطرها كانت الصحافة التي بدأتها بورقة خبور الجزائر التي تعد مصدرا نادرا لا يمكن الاستغناء عنه. ومن خلال محتوى صحيفة أخبار الجزائر يتبين أن رغبة فرنسا كان البقاء في الجزائر عكس ما أوهمت به العامة من أنها ستتخلى عن البلاد.